

## الترحال: يوميات مصرية لويليام جولدنج

### عرض وتقديم: أهداف سوييف

ترجمة عبد الحميد عليوة

منذ حوالي عشر سنوات، حينما كان ويليام جولدنج William Golding في زيارة له لمصر توصل إلى حقيقة بسيطة مفادها أن "مصر بلد يتسم بالتعقيد تصبغها ثقافة عربية إلى حد ما، ومن المشين للزائر غير المطلع عليها أن يحصر نفسه بين موتى المصريين بينما تستمر الحياة العجيبة للوادي والصحراء حوله في كل مكان. لذلك ستكون هذه المرة مختلفة، سيؤجر جولدنج وعائلته قارباً ليعيشوا فيه، يمخر النيل من أعلاه إلى أدناه، ويحطون في مواقع مهمة مثل قرية البهنسا (في محافظة المنيا) وأبيدوس حيث يختلطون في مرح بالمصريين الأحياء بدلاً من الأموات.

ها هو القارب، والنيل، ومواقع الجذب، ولكن الأهم من ذلك كله أن المصريين قد فشلوا في تحقيق هذه التوقعات المثالية. فالقارب قديم وما زال يمخر، والنيل "حاله كحال نهر التيمز" في أغلب الأحوال أو أنه "مصرف موحل" وزيادة على ذلك "يعج بالأمراض"، أما مواقع الجذب فلا بأس بها فيما يتعلق بتلك الأشياء ولكن الأفضل مطالعتها في الكتب فحسب. والأسوأ من ذلك كله هم المصريون أنفسهم الذين يحدقون النظر في الزائرين (بلطف أو غير ذلك)، كما أنهم يشيدون منازلهم بزوايا خاطئة، ويتركون أكوام الأنقاض في شوارع القرى، ويشغلون الموسيقى العربية وينكهون كلامهم بضرب الأمثال. وإذا أهملنا موضوع الاختلاط معهم بمرح جانبا، فالسيد جولدنج يبدو أنه كان يقضي معظم رحلته وهو يحاول تجنب لفت أنظارهم إليه.

إنه يدخل في أقصى درجات الخيال والتعاطف حين يفكر في ظواهر وأحوال يظهر فيها خلو مصر من أهلها- أي الأحياء- ويتملكه شعور أن مصر بلد رائع ولكن لا يليق المصريون به.

إن مصر الحقيقية ستكون ذات أهمية تاريخية وجيولوجية ونباتية إن أُفْرِغَتْ من أهلها، حيث تقتنص طيور الرفراف وأبو منجل حصتها من النهر وتتواثب الحمير في سعادة على الشاطئ، متحررة من أحمالها التي أثقلت ظهورها إلى الأبد.

هنا يجب أن أكتشف لكم الحقيقة وأعترف أن أحد الذين أزعجوا السيد جولدنج طوال رحلته النيلية هو شخص قريب مني جدا وهو علاء سوييف، الذي كانت مهمته مرافقة عائلة جولدنج في رحلتهم. هو أخي لكنه كان يكتب اسمه بطريقة مختلفة عني (Swafe وليس Soueif).

وأعترف شخصيا أنني كان لي يد في ترتيب هذا الأمر الكارثي بأكمله عندما حاولت دار النشر Faber ترتيب الرحلة من خلال إحدى وكالات السفر في أول الأمر، فلم يصلوا إلى شيء، فقرروا أن يطلبوا مني إن كان بمقدوري المساعدة. إن مؤلف رواية السقوط الحر Free Fall (وهو جولدنج) كان

أحد أبطالها وأنا في السادسة عشر من عمري. قرأت الآن مقالته عن مصر في كتابه A Moving Target فأعجبتني.

وقبل أن يعلن بأسبوعين فوز جولدنغ بجائزة نوبل رتبت دار النشر Faber أن ألتقي به وبعائلته في منزلهم بمدينة ولتشير. ذهبت إليهم ووافقت على تقديم المساعدة، حينئذ انتقلت Faber إلى سؤال "أوه والمقابل المادي؟" ولكنني كمصرية حمقاء تنازلت عنه وقلت أن ذلك هدية مني. وبعدها تحدثت مع أخي الذي لا بد أن أقول عنه شيئاً الآن. كان علاء مهندس الإلكترونيات وقد عمل مع شركة خدمات نطف متعددة الجنسيات لمدة عامين قبل أن يستقيل في هذا الوقت لأنه لم يكن يحب حياة الصناعة وايدلوجيتها. أراد أن يعيش في مصر بين المصريين وأن يقوم بشيء له حيوية، فكان يؤسس لدار نشر صغيرة ثورية. لقد قرأ رواية Lord of the Flies "أمير الذباب" والآن يرى كاتبها مهتما بمصر، بل وفي الاتجاه الصحيح يهتم أكثر باثنين وأربعين مليوناً من المصريين الأحياء، وما إلى ذلك. وكان علاء راغباً في مرافقة جولدنغ لمدة ستة أسابيع ليريه البلد وأهلها.

اتفقنا على أنه رغم أن الصفقة كانت تجارية، إلا أنها تبقى "عملاً جيداً" ولذلك فلن يكلف دار النشر Faber إلا الرسوم اليومية العادية إضافة إلى النفقات. وما عدا ذلك (وهو الكثير) سيقدم مجاناً. وبقيت القصة في الكتاب. وعلى الرغم من ذلك يتعين علي أن أقول إنني لم أتعرف على أخي في اليوميات بصفته المرافق رغم معرفتي به طوال 28 عاماً. لم أتعرف على تركيبته أو مواقفه، لكن قبل كل شيء، لم أعرف الرجل الذي يعتقد السيد جولدنغ أن "أطرافه المصرية" قد "ارتعشت بخوف من زمن الفراغنة" لدى حضوره أمام أمين عام محافظة إقليمية. وبطبيعة الحال، فإن السيد Golding يترفع عن نيل الألقاب فعلاً (بيتما تعج مصر بالألقاب)، ومع ذلك يظن أن كل من حوله يؤمنون بها إلى حد "الارتعاش" في حضرته. هذه تخمينات لا أساس لها على الإطلاق، إلا بدافع الصورة النمطية عن مصر في ذهنه، والتي من سماتها الخنوع الشديد للسلطة، والسبب الآخر هو وجود العائلة الكبيرة. ففي وصف يوميات جولدنغ ليوم الإبحار، نجد عائلة جولدينج "يصحبون بحقائبهم إلى القارب" بطريقة غامضة، حيث يبدأ الناس في التوافد، ومن بين هؤلاء الناس "نساء ينتمين لعائلة علاء الكبيرة على ما يبدو. حسناً، ربما قد يكون لدى علاء عائلة كبيرة. ولكن إذا كان لديه هؤلاء، فمن المؤكد أن السيد Golding لم يرههم من قبل. كانت هناك امرأتان في هذا الموقف: أنا وسهير، خطيبة علاء.

يرجع سبب تواجدنا هناك أنهم استخدموا سيارتي وسيارتها لإحضار عائلة جولدنغ وحقائبهم من فندق شيراتون الجيزة إلى نادي اليخوت بالمعادي. ولم يكن أبداً مقصدنا أن نأتي لنحرق إليهم فاغرين أفواهنا، فقد نحينا همونا جانباً لننقلهم إلى قاربهم ساعة الذروة المرورية في القاهرة.

وفي موضع ما في يومياته يقول جولدنغ، "إن مشكلة الراوي أنه ليس بمقدوره حتى أن يحزن ويرقب نفسه ساعة الحزن. فلم تنتظرون الحقيقة من مثل هذا المخلوق؟ لكن هذا ليس كتاب قصصي، إنه

يوميات ، وكتاب رحلات، وتكمن المشكلة في كتب الرحلات في أن شخوصها أو لنقل ضحاياها عادة لا يتمكنون من قراءتها، ناهيك عن عرض روايتهم الخاصة عما حدث. هناك، بالطبع، تقليد في أدب الرحلات يرغب في وضع ذاته مقابل الشخوص الأخرى؛ لتسليط الضوء على غرابة الآخر والتأكيد بأن السلوك الطبيعي الوحيد هو سلوك الكاتب وقرائه عرضاً. لكن هذه ليست المهمة التي هيأ لها جولدنغ نفسه وأفصح عنها. فقد خرج بغية "التعارف" والفهم. ومن البداية كان يعي بشكل يثير المشاعر صعوبة موقفه. وقد اقتبس كلمات لكاتب قبله: " الإنجليز يمضون في طريقهم ... بعادتهم في النظر فيمن لا يثيرون اهتمامهم، وانتظار علاقات الصداقة لتأتي إليهم دون السعي وراءها ... إن البريطانيين هم أكثر الناس غربة بين كل الغرباء في مصر ... قد منعهم ... طبيعتهم المزاجية من الاندماج في حياة البلد ... " ويجد نفسه متفقاً مع هذه الكلمات قائلاً:

"حقاً، بمقدوري أن أشعر بتجربة تمتد معي مدى الحياة لكوني طرازاً معيناً لرجل إنجليزي يتكون داخلي كجدار. لقد كان هذا الجدار أكثر منعة من جدار اللغة. إنها الافتراضات والعادات. وكنت أنا الشخص الذي كان يأمل ألا يكون كتابي عن المعابد بل عن الناس."

وبطبيعة الحال، يشعر المرء بالتعاطف، والإعجاب، وحتى العاطفة مع الرجل الإنجليزي المسن، والكاتب المميز، والضابط البحري السابق والمعلم، الذي تقطعت به السبل ، تماماً كما كان على متن القارب هاني مع طاقمه الذي كان لا يقوم بالعمل إلا عندما يطرأ له، وليس في نوبات محددة والريس الذي كان ينصحه "بأن يغزل أشرعة صبره".

تقطعت به السبل أيضاً حين شعر أنه قد بات في موقف يجافي الحقيقة. فبالإضافة إلى كونه بحاراً متمرساً، فإن السيد جولدنغ معلم، حسب المهنة في فترة ما، ومعلم أيضاً بطبعه الذي لا يتغير. ولكنهم لم يتولوا ابحار القارب هاني كما كان يُبحر به، وحتى وهو يرقب هذه الأمور تسوء من حوله فإنه عجز عن تولي مكانته كربيان أو كمعلم لأنه لا يتحدث العربية، مما جعله يتبرم من الأمر ويقول "هذا ما جعل مكانتي هي مجرد راكب" ... "مكانة في قارب صغير لم أكن معتاداً عليها". وإذا كان للمرء أن يتجرد من الإحسان في تعبيره، فله أن يعزو الكثير من الهياج الشوفيني الذي يخضب هذا الكتاب إلى أنفة عارضة.

لقد كان بالتأكيد شوفينياً وهائجاً. تأمل نبرة كلماته التالية: "كان وجه الريس الشاذلي أسوداً مثل وجوه النوبيين، وجهاً مميزاً بما فيه الكفاية ولكنه يبدو بلون الطين نتاج الوراثة والتعرض للمناخ." ويذكر في الصفحة نفسها: "المعادي ضاحية لا توصف في القاهرة." وهنا كلمة "لا توصف" لا بد وأن تعني أن السيد جولدنغ لا يريد تحمل عناء وصفها، لأن من زار القاهرة يدرك أن المعادي جنة صغيرة من الأشجار والمروج والفيلات رغم أنها تقبع في مدينة يكسوها الغبار وتتغول مبانيها.

ومع ذلك، فإن الشوفينية والهياج وحدهما لا يفسران تماماً قناعته عما يقوله خارج السياق، فعند رؤيته لشجيرات تنمو على متن قارب شحن في براميل كيروسين فارغة تم دهنها، يقول جولدنج أن "المصريين لا يميلون كثيراً إلى الحدائق الخاصة". فكيف عرف ذلك؟ هل من خلال إلقاء نظرة عابرة على منطقة شيراتون في القاهرة؟

لكن لزاماً علينا أن نقول مرة أخرى أن القاهرة بها افراط في المباني واكتظاظ سكاني. وقلماً يعيش الناس في منازل بحدائق خاصة، كما في المعادي. ويدبر بقيتنا أمره قدر المستطاع، فنتجه إلى زراعة نباتات على البلكنات والسلالم وغرف المعيشة والمطابخ، حتى أن أقل الأكوخ شأناً، والذي يقبع على حافة السكك الحديدية، عادةً ما يكون فيه نوع من التعريشة مع اللبلاب والنباتات المتسلقة.

يبدو أنني أحدث ضجة كبيرة حول أمر صغير، لكن هذا النوع من التعالي الفارغ يتمادى في الكتاب بأكمله. فعندما يشتكي أحد أفراد الطاقم من نوبة كلوية (متكررة)، يقترح السيد جولدنج بإشفاق أنه لا بد أن يضعوه في قطار ليصل إلى القاهرة حتى يحصل على العلاج المناسب في مصر قدر الإمكان. وربما لا يرقى هذا إلى مستوى مشفى ريفي محلي حسب معايير جولدنج، ولكن لا بد منه. وعندما رأى مشهداً لشاب يعود إلى قريته محملاً بأشياء ذات طابع غربي بعد فترة عمل في بلد نفطي عربي، يعلق السيد جولدنج على "العملية التاريخية التي لا تعيد تشكيل مصر فحسب، بل العالم العربي كله ربما للأفضل بطريقة أو بأخرى. ولا يمكن أن يكون الأمر للأسوأ بالتأكيد". هذه التعليقات التي يليها مقتضبة يلحق بها دون توافق عدم المبالاة الذي حظي باهتمامه حين يرى وجها صامتا يفتح فيه الفم وينغلق على شاشة التلفزيون، إنه مبارك. لقد عجزت عين الصحفي المراقب السائح عن ملاحظة ملصقات الرئيس وصوره على كل جدار، حتى صادفه على شاشة التلفزيون، فلم يكن متأكداً ويقول -أوه نعم، ربما يكون هو مبارك!

بعيدا عن كل هذا، هناك تضارب في المواقف من جانب السيد جولدنج وهو العيب القاتل في صميم رحلته الاستكشافية. ففي بدايات الرحلة، يمر الركب على جزيرة تدعى جزيرة فيشر Fisher. وعند استفسارهم عن تاريخ تلك الجزيرة، أخبروهم أنها تعود لرجل إنجليزي، يدعى السيد فيشر، أهديث إليه تلك الجزيرة من مالها المصري حين أهانه بامتناعه عن تناول الطعام معه. فيتأمل السيد جولدنج في هذا الأمر ثم يقول إنه في الوقت الذي كان "المصري أحمقاً منفراً، كان فيشر منفراً مثله".

هنا لا يشعر المرء بالتعاطف أو الاحترام تجاه المصري الذي تخلى عن جزيرته مقابل إهانة ليرى أنه طوال هذه الرحلة قد لعب السيد جولدنج دور فيشر: لقد قبل الهدايا وطلبها مع أنه لم يقدرها أو يقر بها. هذه، بالمناسبة، ليست إشارة إلى الأشياء الكثيرة غير متقنة الصنع من الخيزران أو الفخار التي دأب الناس على إلقاءها في يديه بشكل محرج وهو غير راغب فيها.

ومن بين أطياف المصريين يريد السيد جولدنج - أو يعتقد أنه يريد - أن يلتقي بطائفة واحدة منهم وهم

الفلاحين. ولا يريد أن يتم ذلك بصورة رسمية، بل بشكل "طبيعي" قدر الإمكان. وليس هذا الأمر، بالطبع، يسهل الترتيب له. ولكن مع اقتراب نهاية الرحلة، عندما عادت عائلة جولدنج إلى القاهرة وجرى الإعداد لرحلة إلى الدلتا، علم علاء أن أحد أصدقائه يمر بمشكلة عائلية وينوي زيارة عائلته في قرينتهم. ويوافق هذا الصديق على السماح لعلاء وجولدنج بمرافقته. فكيف يرى السيد جولدنج هذا؟ يرى أن علاء قد ضرب عصفورين بحجر واحد. فقد كان جولدنج بحاجة إلى الإلقاء نظرة خاطفة على الدلتا وكان الدكتور بحاجة لرؤية عائلته. في الواقع، ظن نفسه قد أتاح للدكتور ما يقوله إلى منزله. ولم ير أن الرجل قد صنع معروفا في غاية الود حين سمح له بالدخول إلى منزل والديه ليشاهد الأسرة حين أزمته. ولماذا قام بذلك؟

كان ذلك بدافع الصداقة لعلاء واحتراماً لجولدنج الكاتب، لأن هذا الصديق كان نفسه أديبا ومعلما وكاتباً وناقداً. لكن كل هذه الجهود كانت باللغة العربية ولا يعتد به. على أي حال، ليس لدى السيد جولدنج ما يشعره بالامتنان لأنه لم يخرج بشيء من تلك الزيارة. ويلخص الأمر قائلاً: "الأب والبواسير التي كان يشتكي منها، والجد الذي جرحت حفيدته وقاره! والأم التي كانت حزينة ومنزعجة أكثر من كونها قلقة، والأب لم يكن أكثر قلقاً من الآخرين، وكان الابن المثقف يهدئ الأمور ويقنع الجميع بعدم القيام بأي شيء." لقد فوت الهدف كله للأزمة العائلية التي أحدثت بها زيارة تهديدية للأسرة من قبل الشرطة اثر مشاركة ابنتهم في مظاهرة طلابية بالقاهرة. وأخفق في إنصاف والدة مضيفه حيث قال أنها: "نحيلة تتشح بالسواد، ووجهاً أصفر متجدد"، "وكانت تشارك عنزة مطبخها" وتمكنت من أن تنطق بعد ما يقرب من ألفي عام من القمع قائلة: "لا يصح أن نحدث جلبة حول هذا الموضوع. إنه لشرف كبير حقاً أن نشارك في المظاهرات".

إن الغشاوة عما مثل أمام عيني جولدنج هناك جعلته يتغاضى عما كان من المفترض أن تكون فرصته المثلى "لللقاء المصريين". لقد كان على متن القارب طاقم يضم ما يمثل قطاع عرضي من المجتمع المصري كما كان يأمل: فمنهم رشدي - الذي كان يعمل طباً، وموسيقياً، وكوميدياً، ومعلماً للكتابة الهيروغليفية وشاعراً بالسليقة وطالب كلية تجارة ينتظر موعد تجنيده. وسعيد النوبي العجوز الذي خدم مع البريطانيين وبغضهم ولكنهم ضموه إليهم بمزحة فاختمت قائلاً: "لقد ولت مشاكل الإنجليز منذ زمن بعيد"، والرئيس شاذلي - المنيأوي العجوز الذي كان لديه زوجتان وإحن زوجية على عاتقه؛ وفروز، الشاب ذو البدلة الرياضية بالنجوم المتناثرة عليها والأثواب الزاهية؛ والمهندس أحمد الذي لم نعلم عنه شيئاً على الإطلاق، والذي أخطأ في تهجئة اسمه وأقول "أخمت"، لأنه قد يبدو اسمه أكثر فرعونية بهذه الطريقة، وعلاء.

كان السيد جولدنج منشغلاً بالابتعاد عن رفاقه بدلاً من الاقتراب منهم. واعترف بأنه "في حقيقة الأمر ودون موارد كان خجولاً" وكان هذا مثير للغاية، حيث يعقبه نقاش حول ما إذا كان المقابل الدقيق للكلمة "خجول" يمكن أن نعثر عليه في لغات أوروبية أخرى. ومن خلال هذا النقاش استنتج السيد جولدنج أن الخجل صفة تخص الانجليز. ولم يخطر بباله أبداً أن يسأل - أو حتى يتساءل - أفي اللغة

العربية كلمة للخجل أم لا؟ (يوجد بها بالتأكيد) أو أفهم الناس مأزقه أم لا.

ومع اقتراب نهاية يومياته، يقر السيد جولدنج بأسى أن " كل ما كتبه لم يكون عن مصر، بل عنه، أو إذا أحببتم، فهو عنا نحن الإنجليز الذين ينتمون إلى الطبقة المتوسطة ويعيشون في مناطق هادئة بإنجلترا، ثم يهيمون بارادتهم في التعقيد اللامتناهي. " هذا صحيح. ولو كان السيد جولدنج صادقاً مع نفسه وظل مع الفراغة، والتضاريس الجيولوجية، والحياة البرية وأعاجيب رحلته النهرية، لحصلنا بالتأكيد على كتاب أكثر موضوعية وإفادة.

ومن الإنصاف أن نذكر أن جولدنج قد قام بحذف بعض المواد التي كانت مسيئة بشكل صارخ من مسودة الكتاب عقب تلقيه تعليقات مفصلة من علاء . ولكن ما أبقى عليه كان سبباً كافياً لأخي لسحب صورته من دار النشر فاير. ولكن قد منعه إبانء أن يطلب حذف اسمه، على الرغم من أنه قد أصبح عرضة للهجوم الحاد من قبل رفاق وطنه لأنه فتح الأبواب ومهد الطرق التي أدت إلى جعلنا هدفاً لكتابات متغطسة ومتعننة على يد رحالة غربي.